النهار
الثلثاء ٢٧ أيار ٢٠٠٣

مدنيات / تربويات

الحرية مدى وعي سائرها

بين التقاليد المرعية والتجديد، حرية نولد من رحمها، وحرية نصنع نحن مهدها... اذ في التقاليد نرث الحرية تبعا للمحيط الذي نولد فيه... اما في التجديد فنحن نخلق الحرية تبعا للوعي الذي نحيا فيه... لعل الاعتقاد السائد بأن الغرب مهد حرية الانسان، حدانا على البحث عن حريات زائفة، وادى الى الضياع في قشور المظاهر الغربية التي ابعدتنا عن المفهوم الحقيقي لحرية الانسان التي لا يمكن ان تحد بمساحة ولا ان تمتلك ببلد او بدولة، لأن الحرية فكر، وعي، انسان. فمن لا يعي حقيقة نفسه يجهل كيفية تحريرها!

فلنوجه تفكيرنا الى الشرق، الى مهد المعرفة، الى منشأ الحس الروحي، الى موئل الانسان، الى اصل الحرية. "ان شخصا سجين الفضاء خير من آخر حر في حدود المادة... لأن الاول يطمح الى الحرية فيما الثاني راض بالعبودية". (من سلسلة علوم الايزوتيريك – منشورات اصدقاء المعرفة البيضاء، كتاب "اللاوعي ان حكى"، تأليف الدكتور جوزف مجدلاني). علوم الايزوتيريك هي علوم الترقي بانسانية الانسان، وهي قديمة قدم الانسان، ومعرفتها متجددة عبر العصور كرسالة انسانية. تفني الانسان عبر التاريخ بحرية المعرفة، نازعة عنه قيود الجهل. اما اليوم، ولأول مرة في تاريخ اللغة العربية وتحديدا في لبنان، ومنذ عقدين من الزمان، فإن علوم الايزوتيريك تقدم المعرفة الانسانية، المعرفة العلمية التطبيقية لكل مريد، لأنها تخاطب مختلف مستويات الوعي من خلال مؤلفاتها التي ناهزت الاثنين والثلاثين كتابا لغاية تاريخه (منشورات اصدقاء المعرفة البيضاء). تكشف علوم الايزوتيريك من خلال هذه المؤلفات تقنية "اعرف نفسك" بمنهج تطبيقي عملاني وحياتي، اذ "وعي المعرفة هو هدف الايزوتيريك لأن وعي المعرفة، اي تطبيقها عمليا، هو الحرية بمداها الكبير" (كتاب "محاضرات في الايزوتيريك" – الجزء الثاني). وعي المعرفة هو الحرية بمداها الكبير، حيث الانسان محور الوعي وحيث دائرة وعيه تحدد مدى مفهومه للحرية. فمهما اختلفت المظاهر الاجتماعية للحرية والعبودية، فما هي الا نتائج ظاهرية لأسباب داخلية باطنية، ولن يستطيع الانسان التوصل الى نتائج ايجابية في حياته ما لم ينفتح فكريا على الابعاد الباطنية الموجودة في داخله، وما لم يعمل على توعيتها.

ان ركيزة التطور في الوعي من منظار الايزوتيريك هي ابدال الصفات السلبية البشرية بالصفات الايجابية الانسانية، ولا شك ان مفهوم السلبيات لدى هذه العلوم يختلف تماما عن المفهوم العام. فحتى العلوم التي تتطرق الى الانسان، كعلم الاجتماع وعلم النفس، لم تشر الى مثل هذا المفهوم العميق للسلبيات البشرية. فما هي علاقة السلبيات بالحرية الانسانية؟

لا بد من استعراض بعض الصفات السلبية الموجودة في الانسان، وتحديدا في النفس البشرية. كالخوف، التردد، القلق، الكره، التكبر، الانانية، الضعف، التعصب، التقوقع الخ... اما الجهل فهو اخطر انواع السلبيات اذا ما انطلق من جهل الانسان لنفسه، وبالتالي لكل ما تحويه نفسه من سلبيات وايجابيات. فكيف يمكن للانسان ان يكون حرا وفيه تعشعش مثل تلك السلبيات؟ كيف يمكن ان يفهم معنى الحرية وتفكيره مقيد باغلال السلبيات؟ فإن كان المفهوم العام يقضي بأن الطبع يغلب التطبع، فتقنية "إعرف نفسك" تؤكد ان التطور في الوعي ناموس كوني... حيث ارادة الانسان لا تحوّل الطباع فقط، بل تبني انسانا جديدا بكل ما تحمله الكلمة من معان وابعاد.

نعم، الحرية انسان، انسان يعي حقيقته الباطنية والظاهرية مزامنة، فيرتقي بذاته بقدر تحرره من الاخطاء التي يمارسها، ويحلّق بابداعاته من خلال تفتيح طاقات الباطن الهاجعة في كيانه. فهل اسمى من حرية تنشد الوعي الذاتي سبيلا، وتتقصى الغوامض في الحياة؟ وهل اعظم من سمو الفكر، واعمق وعيا من تشذيب النفس، وارفع من ابداعات الذات احساسا بالحرية؟ فحقيقة الحرية تكمن في ارتباطها بالذاتية.

"الانسان عالم غريب مستقل، عالم مترامي الاطراف سحيق الاغوار ولامتناهي الأفاق... يحوي ما لا يخطر في بال العلماء! عالم الباطن فيه، او العالم اللامنظور، اوسع من عالم الظاهر، ويحوي اكثر مما يحويه الاخير! في الانسان اعمق مما يرى بواسطة المعدات الالكترونية المتطورة. في الانسان ابعد مما يظن الطب انه توصل الى اكتشافه. في الانسان اشمل مما يعتقد اي عالم او فيلسوف انه تعرف اليه. وفي الانسان كيان غامض، ما زال خفيا عن ابصار الاكثرية الساحقة من البشر! كيان عظيم يحوي طاقات هائلة هو الانسان. لكنه لم ينفتح عليها بعد! طاقات قادرة على الانتقال عبر المكان، والتنقل عبر الزمان... هذا هو الانسان؛ جسد وروح وبينهما مكونات باطنية خفية تصل الروح بالجسد، او ابعاد وعي في وجود واحد! لكنه قادر على الانطلاق في كل هذه الابعاد معا، مزامنة". ("كتاب الايزوتيريك" –"رحلة في مجاهل الدماغ البشري").

ما من حرية الا حرية الوعي، وما من عبودية الا عبودية اللاوعي. فإن كان الظاهر – العَرَض يشير الى حرب الحرية ضد العبودية، فالباطن – الجوهر يؤكد ان الانطلاقة المستقبلية هي حرب الوعي ضد اللاوعي في الانسان نفسه... كما تشهد الظواهر حولنا. وفي هذا الاطار يشير كتاب "الايزوتيريك "تعرف الى وعيك": "حقا ان الصناعة الاهم في الحياة هي تصنيع الانسان... والتصنيع عمل ذاتي فردي خاص هدفه التوعية، التوعية التي تبدأ من الداخل، تبدأ تفتحا وتنسيقا وتنتهي صقلا وانسجاما مع الخارج... ولا احد يستطيع تصنيع الآخر الا نفسه".

نابغة ذبيان